الحضارة والمسئولية

د. محمود حمدى زقزوق

١ — تمهيـــد :

لقد استطاعت المدنية الحديثة القائمة على العلم والتكنولوجيا أن تؤثر فى حياتنا العملية تأثيراً شاملا . ولكن التقدم العلمى والتكنولوجى المدهش الذى ينعم به قدر كبير من البشر كان باهظ التكاليف لما نتج عنه من أخطار تهدد وجود البشرية جمعاء .

فقد أصبح الخطر اليوم يتهدد بقاء النوع الإنسانى عن طريق نتائج العلوم الطبيعية ومنتجاتها ، وذلك بسبب التهديد المستمر والمتزايد بنشوب حرب ذرية وبسبب أزمة الغذاء العالمية ، وبسبب التلوث المتزايد للبيئة الإنسانية عن طريق التطور التقنى المتفلت الزمام (١) .

وهناك أيضا تطورات عالمية على الصعيد السياسى من الصعب ضبط مسارها وليس الإرهاب الدولى إلا إحدى السمات الظاهرية لهذه التطورات التى تنكبت جادة الصواب .

وقد أصبح العلم — الذى تهدد نتائجه بقاء الانسانية — مطالبا الآن بأن يتحمل أيضا عبء استقرار الحياة الإنسانية واستعادة السلام العالمى ، وذلك على أساس من التعاون الدولى وعلى أساس فحص الأسس التى يقوم عليها هذا العلم (٢) .

---

(١) انظر ذلك W. Huber فى مقالته عن Friedens Rorschung فى الموسوعة التاريخية للفلسفة .

His to nisches Warterbnch der Ph losphie, Bd. 2, 1972, P. 1119

(٢) المرجع السابق

بهدف الوصول إلى أخلاقيات تحكم مساره وتضبط زمامه . فان الاعتقاد العام فى التقدم - الذى ساد القرن التاسع عشر والذى تأسس على التطور الهائل للعلم والتقنية كان يحسب أن السلام العالمى سيأتى تلقائيا خلال التطور الحضارى الشامل .

ولكن الكوارث التى سادت القرن الحالى هزت هذا الاعتقاد هزا عنيفاً وجعلت الثقة فى مثل هذا السلام التلقائى أمراً خيالياً(١) .

أما فكر العلوم الطبيعية — الذى اعتقد المتطرفون من أنصاره أنه قد كشف النقاب عن أسطورية الفكر الميتافيزيقى وأسطورية الأديان — فانه قد كشف بما نتج عنه من أخطار تهدد البشرية جمعاء ، على أنه هو نفسه قد أصبح أسطورة .

وليس هناك شك فى أن المشكلات الحضارية التى تواجهنا مشكلات لا حصر لها وأنها تبدو مستعصية على الحل ، ولكن هذا ليس دليلا على أن حلها أمر غير ممكن . فقد قامت الإنسانية فى تاريخها الطويل بحل الكثير من المشكلات فى مجالات عديدة مما كان يبدو فى حينه أمراً مستحيل الحل ، وقد حققت البشرية إنجازات عظيمة كانت رداً على التحديات التى واجهتها .

وفى هذا البحث نود أن نتناول المشكلة المطروحة — وهى مشكلة التوترات الحضارية وقضية التوافق الحضارى — من جانبها التأسيسى .

---

(١) انظر فى ذلك O. Kimminich فى مقالته عن السلام الدائم فى المرجع السابق ص ١١١٨

٢ — مفهوم الحضارة :

وفى البداية نرى أنه يتحتم علينا أن نرسم إطاراً عاماً لمفهوم الحضارة يكون تعبيراً عن الفهم الحديث لهذا المفهوم ، وذلك دون الدخول فى صراع التعريفات المختلفة لمصطلح الحضارة .

أننا عندما نفكر فى الحضارة فإننا نفكر أولا فى الميراث الحضارى الضخم الذى آل إلينا ، نفكر فيما قامت ولازالت تقوم به الحضارة من تغيير الحياة على الأرض تغييراً بعيد المدى بشكل يدعو إلى الدهشة . ويحق لنا أن نقول : إن الحضارة هى إمتياز الإنسانية ، وعند النظرة التأملية القريبة فى ظاهرة الحضارة ندرك أن الحضارة الموروثة — وهذا أمر ينسحب بطبيعة الحال على كل الحضارات المختلفة — ليست ببساطة شيئاً موروثاً ، وإنما هى باستمرار شىء يجب أن يتملكه المرء مرة أخرى بجهد جديد لكى يصبح المرء مالكا حقيقيا لها ، وندرك أيضاً أن المضمون الحقيقى للحضارة يكمن فى هذا الاكتساب الجديد والتملك الذى يظهر فى صور جديدة .

وبهذه الطريقة وحدها يبقى هذا المضمون الحضارى حياً نابضاً بالحياة .

٣ — الحضارة والمسئولية :

وفى ظاهرة الحضارة - وهى ظاهرة معقدة تعقيداً كبيراً - نجد جانبا من جوانبها قد إكتسب أهمية خاصة بالنسبة لعصرنا الحاضر ، وهو جانب يبدو لى أيضاً ذا أهمية بالغة بصدد المسائل المطروحة فى هذا المؤتمر .

فالحضارة لم يعد يجوز اليوم أن تمتلك فحسب ، فهذا أمر لم يعد كافيا وإنما الحضارة هى التزام .

وهذه الحقيقة والموقف الذى تتطلبه يبدو أن لى المنطلق الوحيد الممكن لمحاولات التغلب على المشكلات الحضارية المتشعبة فى عصرنا الحاضر سواء كانت هذه المشكلات داخل الحضارات المختلفة كل منها على حدة . أو كانت مشكلات على مستوى العلاقات الحضارية الدولية .

أن مثل هذه الحضارة — بالمعنى الذى ذكرنا — هى وحدها التى يمكن أن تكون جسراً عبر الحدود بين الحضارات المختلفة . وذلك لأنها تجعل من السهل اتخاذ موقف التسامح إزاء عوالم الحضارات الأخرى .

وهذا التسامح يمكن أن يكون بمثابة مقدمة الالتقاء ، وللحوار الحقيقيين بين الحضارات المختلفة ولمحاولات التفهم الحقيقى للحضارات الأخرى .

والحضارة بهذا المعنى أيضاً تجعل من بادىء الأمر كل محاولات رفض الحضارات الأخرى أمراً غير وارد ، وتكشف النقاب عن الأحكام المسبقة التى تنبنى عليها هذه المحاولات ، كما تكشف أيضاً عن عدم لياقة أشكال السلوك المرتبطة بهذه المحاولات من حيث الغطرسة والاستخفاف .

وعندما نقول إن الحضارة التزام فإننا نعنى أنها ليست مجرد حضارة انتاج أو استهلاك ، فهذه لا تستحق أن يطلق عليها لفظ حضارة ، فلم يعد يكفى أبداً أن يقتنى المرء الحضارة مجرد اقتناء ، الأمر الذى يمكن أن يؤدى — كما هو الغالب — إلى متعة مجردة ويؤدى أيضاً أو يمكن أن يؤدى إلى ضيق الأفق والرضا الكاذب عن النفس (١) .

---

(١) لقد عالج مالك بن نبى — فى فصل بعنوان (من التكديس إلى البناء) فى كتابه شروط النهضة — الوضع الحضارى القائم فى العالم الإسلامى ، ووضع مقياساً عاماً لعملية الحضارة صاغه فى قوله (إن الحضارة تلد منتجاتها) =

وهكذا نجد أن الحضارة عندما تفهم فهما حقيقيا فإنها تؤدى باستمرار إلى التواضع لا إلى الاستسلام .

فالحضارة الصحيحة توسع الأفق وتجعل المرء على وعى بالمسئولية الكبيرة التى يتحملها الإنسان الفرد ليس فحسب بمسئوليته عن أعماله الخاصة وإنما — بمعنى — مسئوليته عن العالم كله .

ولعل تعبيرنا بلفظ مسئولية فى هذا الصدد يكون أفضل من تعبيرنا بلفظ التزام أو الزام الذى يرتبط به بسهولة تصور الضغط أو الاكراه .

= ورأى طبقاً لذلك أنه سيكون من السخف عكس هذه القاعدة ، ومحاولة صنع حضارة من منتجاتها .

فلكى تنشىء حضارة لا يتحتم علينا أن نشترى كل منتجات الحضارة الأخرى .

فهذه الحضارة الأخرى إن باعتنا منتجاتها فلا يمكن أن تبيعنا روحها وأفكارها وكل المعانى التى لا تلمسها الأنامل .

ونحن عندما نقول هنا أن الحضارة التزام فإننا نعنى أن هناك شيئاً ذاتيا أساسياً يجب أن يقود عملية التحضر . والقرآن يعطينا هنا مبدأ خالداً يتمثل فى قوله تعالى :

(إن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم) .

فعملية التحضر إذن عمليه منبعثة من الداخل ولا تحفل كثيرا بالزخرف الظاهرى الخالى من المضمون .

ولهذا يمكن أن نرى فردا من الأفراد يستخدم كل منتجات الحضارة ولكنه لا يسلك سلوكا حضاريا ، ومثل هذا الفرد لا يمكن أن يقال عنه متحضر رغم الأكوام الهائلة من منتجات الحضارة التى يحط بها نفسه .

وبناء على ذلك نقول : إن الحضارة مسئولية بدلا من أن نقول إن الحضارة التزام فتملك الحضارة يعنى اعتراف المرء بالمسئولية وتحمله لهذه المسئولية ، وذلك لأن الحضارة - التى هى امتياز للأنسانية - ليست امتيازا لفرد يعلب الحظ دوراً فى امتيازه ، وليست امتيازا لمن حباه الله بموهبة خاصة ، وانما الحضارة مسئولية بكل ماتحمل هذه الكلمة من معنى .

٤ — المسئولية والحرية :

والإنسان مسئول لأنه حر ، وتحقيقة لحريته لايكون الا بتحمله للمسئولية . والإنسان الذى كان فى السابق ينعم بشىء من الاستقرار النفسى فى ظل تصور واضح المعالم للعالم الذى يعيش فيه يفتقد اليوم هذا التصور الواضح . وفى الوقت نفسه يشعر بالضياع ويشعر بحريته فى خضم عالم دائم التقلب متلاطم الأمواج .

وفى ظل هذه الظروف فإن الإنسان المعاصر لايجد هويته أو ذاتيته إلا فى تحمله للمسئولية . ورغم ارتباط الإنسان بالطبيعة والتاريخ فإنه فى الوقت نفسه مستقل وحر .

وفى هذه الحرية تكمن كرامته الفريدة وفرصته فى تحقيق وجود انسانى يليق بكرامة الإنسان ، وذلك بتحقيقه للحرية عن طريق التصميم على السلوك الأخلاقى .

وفى حين أن المسئولية فى السابق قد فهمت فهما ضيقاً أو فهما ذا جانب واحد من حيث هى مسئولية الذات العاملة وماتقرره من سلوك فإن هذا المفهوم يضاف إليه فى العصر الحديث بعد جديد :

فالمسئولية عن هذا الذى يحدث فى العالم والمسئولية عن الظروف

الحياتية للإنسان(١) .

والمسئولية بهذا المعنى تستند على الاقتناع بتضامن كل البشر . وإدراك هذه المسئولية والاعتراف بها أمر يتوقف على فهم الحرية الإنسانية باعتبارها قيمة مطلقة والاعتراف بها من حيث هى كذلك .

ولايمكن فى حقيقة الأمر فصل حريتى عن الآخرين ، لأن الحرية لايدركها المرء إدراكا حقيقياً إلا بممارستها عن طريق علاقته بالآخرين بوصفهم أشخاصاً أحراراً : فالعلاقة بين الأشخاص على هذ النحو هى وحدها التى تجعل الحرية أمراً ممكناً »(٢) .

---

(١) انظر فى ذلك Schwartlander فى مقالته عن المسئولية Verant Wortung ص ١٥٨٠ / ١٥٨٣ فى (Handbuch Philesophischer Grundbegriffe 1973 - 47

(٢) ويحق لنا أيضا أن نذهب إلى أبعد من ذلك ونؤكد أن الإنسان لايمكن أن يعيش ويتمتع بنعمه الحياة ذاتها إلا فى ظل علاقة إنسانية . وقد أثبتت ذلك البحوث العلمية : فقد أجرى العلماء فى أمريكا تجربه تضمنت عزل خمسة من الأطفال حديثى الولادة فى حجرة واسعة معقمة تعقيما ممتازاً . ومجهزة بأحدث الوسائل الصحية ، وخصص لكل طفل فراش صغير أنيق فى غاية النظافة ، فإذا حان موعد الطعام دخلت الممرضة فألقمت كل طفل زجاجة لبن تتوافر فيه كل شروط الغذاء الصحى ولكن الممرضة حسب التعليمات المشددة من جانب الأطباء العلماء أصحاب التجربة - لم يسمح لها بلمس الطفل أو حمله بين ذراعيها وهدهدته أو تدليله أو مضاحكته أو مداعبته بكلمة أو قبلة ، فكان تعاملها مع هؤلاء الأطفال تعاملا آليا كما لوكانت تتعامل بالفعل مع آلة من الآلات لامع شخص بشرى وكانت نتيجة هذه التجربة =

والمسئولية التامة ترجع بالضرورة إلى العلاقات الأساسية الإنسانية المطلقة التى تتمثل فى المحبة والأخوة والعدالة والأخلاص والتراحم .

٥ — الحرية والسلوك الأخلاقى :

والعمل المسئول بهذا المعنى ليس مجرد اهتمام أو عطف وأنما هو أمر يتفق مع مطلب أساسى وهو حضور أو وجود كل من أجل الآخر وجودا مطلقاً ومتبادلا ، وأدراك المسئولية على هذا النحو تتعلق باستمرار بالضمير الداخلى لكل فرد

أما الطريقة التى تفهم بها المسئولية فهما محدداً وكيفية تحولها إلى عمل فهذا أمر يتفق مع فهم كل فرد لذاته .

فالإنسان هو ذلك الكائن المجهول كما عبر عن ذلك أحد الكتاب تعبيرا قوياً . وطالما يتم فهم الحرية على أنها إرادة الإختيار العشوائى فحسب وليس الحرية الأخلاقية ، وطالما يتم سلوك الإنسان بصفة عشوائية فقط مثل أن تكون قراراته مجرد اختيار بين دوافع طبيعية طالما . الأمر كذلك فإن الإنسان يظل خاضعاً لتحديد أجنبى عن طبيعته ، ويظل غير حر ويظل منتمياً إلى عالم الطبيعة (١) .

= هى موت الأطفال الخمسة رغم العناية الصحية الفائقة وكان سبب موت الأطفال - كما شخصه العلماء - هو الحرمان من هذه العلاقة الإنسانية . الحرمان من الحنان الأمومى ومن التدليل والهدهدة والمداعبة والقبلات فهذا كله يمثل بالنسبة للطفل إكسير الحياة والعلاقة الإنسانية هى التى تضمن له كل ذلك (راجع صحيفة « الأخبار » القاهرية فى ١٩٨٠/٧/١٤ ص ١٤) .

(١) ومثل هؤلاء ينطبق عليهم قول الله تعالى (لهم قلوب لا يفقهون بها ولهم أعين لا يبصرون بها ولهم آذان لا يسمعون بها ، أولئك كالأنعام بل هم أضل أولئك هم الغافلون) الأعراف ١٧٩ .

وطالما كان الأمر كذلك فإن الإنسان لا يصل إلى فهم حقيقى لذاته ، وتكون أعماله ليست شيئاً اكثر من أعمال تتسم بالعنف وتكون فى النهاية أعمالا لا تتسم بالمسئولية وأن كان ذلك أيضاً ربما يكون مخالفاً لقصده .

وليس هناك شك فى أن شعور الكل بالمسئولية من أجل الكل قد بلغ فى عصرنا حدا لم يبلغه من قبل ، وعلى الرغم من ذلك فإن هناك قدراً متزايداً من الأعمال اللامسئولة يتقبلها هذا العصر فكيف يمكن أن يحدث هذا ؟

أن ذلك يرجع فى واقع الأمر إلى أنه كلما أزداد نطاق الحريه اتساعاً كلما كانت هناك أيضاً أمكانية لازدياد إساءة استخدام هذه الحرية (١) .

٦ — الحرية فى العصر الحديث :

ويستطيع المرء أن يتبين من خلال تاريخ العالم تقدماً مستمراً نحو الحرية ابتداء من تاريخ الامبراطوريات الكبرى التى كان فيها فرد واحد فقط حرا وهو الحاكم أو الإمبراطور ، إلى مجتمعات العبودية القديمة التى كان فيها البعض فقط يتمتع بالحرية ، إلى نظام المجتمعات الإقطاعية التى باشر فيها السادة الأحرار نظام السخرة والإستعباد . إلى أن وصل الأمر إلى النظم القانونية التى يسود فيها القانون فى العصر الحديث .

ومع ذلك يحق للمرء أن يتساءل : هل أتاح العصر الحديث حقاً للفرد أمكانية تحقيق حريته التى أعطيت له ؟

أليس الأمر هو أن الإنسان فى المدنية الحديثة قد تم توجيهه توجيها من جانب واحد فأصبح واقعاً تحت تأثير صووة واحدية الجانب للعالم وهى صورة العلم والتقنية وأنه قد أصبح خاضعاً لجبريات المدنية ؛ وأنه قد فقد حريته نتيجة لعملية الخضوع للطبيعة — بما فيها طبيعته البشرية —

(١) انظر فى ذلك مقالة (التقدم) التى كتبها Oeing - Hanhofr. المرجع السابق ص ٤٨٠ .

خضوعا تقنيا أو تقنيا اجتماعيا ؟ (١) .

أن هذا الخطر قائم دون شـــك — ومع ذلك فإن الأدعاءات التى تقول بأن العلم الطبيعى والتقنية قد دمرتا الأسس الأخلاقية للمدنية تدميرا لعله تدمير نهائى(٢) أو أن البقية الباقية من الحضارة لا تستطيع أن تقدم ثقلا مقابلا للعلم والتقنية(٣) ، أو أن الأخلاق والحق ليست إلا أمورا ثانوية أى ليست إلا بناء فوقيا كما تدعى الماركسية — كل هذه الأدعاءات وأمثالها ليست إلا « إلحادا أخلاقياً »(٤) — إذا جاز لنا أن نستعير هذا التعبير من هيجل — وليست إلا فكرا تشاؤمياً .

أن هناك جهودا كثيرة ناجحة إلى حد ما فى مجالات كثيرة تهدف إلى حل بعض مشكلات المدنية الحديثة ، ونذكر هنا على سبيل المثال اتفاق حظر التجارب النووية . ويمكن أيضاً — لكى نذكر مثالا اخر من بين أمثلة كثيرة — أن نحل مشكلة تلوث البيئة حلا جزئياً عن طريق الحد من إنتاج السيارات التى تسير بسرعة أكثر وأكثر باستمرار وإقامة نظام للمواصلات القريبة داخل المدن يكون بديلا عن ســـير السيارات فى شوارعها .

---

(١) أنظر فى ذلك : R. Maurer فى مقالته عن الاغتراب فى المرجع السابق ص٣٥٦

(٢) أنظر فى ذلك :

M. Born : Erinnerungen and Gedanken eines Physikers : فى مجلة : Univensitas, 23, P. 273

(٣) أنظر فى ذلك : R. Mauren فى مقالته عن الحضارة ص٨٢٨ فى :

Handbuch philos. Gruudbegri Fre.

(٤) أنظر ذلك :

Hegel : Philosophie des Rechts, P. 25

٧ — الحضارة المادية وحضارة السلوك الأخلاقى :

أن التناقض بين الحضارة الشيئية أو الحضارة المادية — وهى حضارة ليست إلا وسيلة ولا تعرف غايات أخلاقية حقيقية — وحضارة السلوك الأخلاقى ، هذا التناقض من المشكلات القديمة للإنسانية .

وهكذا يخبرنا أفلاطون فى محاورته المسماة بروتا جوراس(١) — يخبرنا عن هاتين الحضارتين فى شكل أسطورة ويذكر أن الناس فى البداية كانت تنقصهم الحكمة السياسية الضرورية لتعايشهم .

وقد استطاعوا أن يصنعوا لأنفسهم بيوتاً يسكنون فيها وملابس يرتدونها وغذاء يقيم أودهم واستطاعوا أن يحموا أنفسهم من الوحوش الكاسرة ، ولكنهم مع ذلك كله لم يستطيعوا أن يحموا أنفسهم من بعضهم بعضـــاً ، وراحوا يستخدمون أساليب الموت التى تستخدم عادة ضد الحيوانات المتوحشة — ضد بعضهم بعضاً .

وتقول الأسطورة أنه لكى لاينقرض النوع البشرى بهذه الطريقة فقد منح (زيوس) الناس « الحياء والعـــدالة » . كما منحهم فضيلة الاجتماع والعلم .

أن المشكلة الحقيقية فى عصرنا الحاضر تتمثل — كما أعتقد — فى هذه الحقيقية

---

(١) أنظر : بروتاجوراس لأفلاطون — ترجمة محمد كمال الدين على يوسف ص٥٥ وما بعدها — دار الكاتب العربى للطباعة والنشر بالقاهرة ١٩٦٧ ، وراجع أيضاً :

Platon : Samtiche Werke, Bd, 1, P. 61 ff. (Rowohlt) 1963.

المؤلمة وهى تراجع حضارة السلوك الأخلاقى تراجعاً بعيد المدى أمام الحضارة الشيئية(١) .

وإن الكفاح من أجل سيادة السلوك الأخلاقى فى مقابل الحضارة الشيئية المجردة لهو واجب كل منا. ومصير هذا النزاع القديم المتواصل حول سيادة العقل قد ألقت المقادير فى يد الحرية الإنسانية .

التوافق الحضارى العالمى :

ونستطيع الآن أن نقول أنه لكى يتحقق التوافق العالمى الحضارى فإنه لابد من تحقيق مطلب أساسى وهو أنه يجب أن يتوفر لكل الناس - وخاصة لهؤلاء الذين تنقصهم الشروط الحياتية الضرورية - وجود يليق بالكرامة الإنسانية وهو الوجود فى حرية .

وأن عدم تحقيق هذا المطلب يؤدى إلى التوترات الحضارية .

أما التعاون بين الحضارات المختلفة فإنه أمر ممكن ، وتواجدنا هنا من فى هذا المؤتمر دليل على ذلك . فتعاوننا هو مثال من أمثلة التعاون بين الحضارات المختلفة .

وعالمنا الذى نعيش فيه هو عالم صنعناه نحن البشر ، وسيكون عالمنا فى المستقبل هو ذلك العالم الذى نصنعه عن طريق سلوكنا .

---

(١) أنظر فى ذلك أيضاً : Behrendt فى كتابه الإنسان فى ضوء علم الاجتماع : Der Mensch im Licht der Soziologie (1962) P. 143. الذى يرى أن الخطر الحقيقى الذى يتهدد الإنسان المعاصر يكمن فى أن قدرته على تشكيل ذاته على المستوى الفردى والجماعى قد تراجعت تراجعاً حادا خلف قدرته على تشكيل بيئته تشكيلا ماديا .

وقد بين القرآن الكريم أن الإنسان هو الكائن الوحيد من بين كل الخلق الذى تحمل المسئولية(١) .

وهى مسئولية الاختيار بين الخير والشر . وكل فرد منا يقف أمام هذا الاختيار ولا يستطيع أن يتفاداه .

إن الاغتراب والبؤس اللذين يعانى منهما الإنسان فى عالمنا المعاصر لم يصلا فى يوم من الأيام إلى هذا القدر الذى وصلا إليه اليوم ، وكلاهما تعبير عن حرية لم تجد ذاتها بعد .

وهنا سؤال هام يفرض نفسه فى هذا الصدد وهو : هل يوجد هناك بديل آخر للأديان يحمى الإنسان من الضياع النفسى إذا استمر انهيار الأديان فى عالمنا المعاصر ؟

أن الإجابة الوحيدة الممكنة على هذا السؤال - فى نظرنا - تقول: أن البديل الوحيد للاديان هو الهاوية بكل ماتحمل هذه الكلمة من معنى .

أننا كبشر لن نستطيع بقوانا المحدودة أن نصنع عالماً بالغ الكمال ولكننا نستطيع السعى إلى هذا العالم الكامل بجهود متجددة باستمرار .

وإن الإنسان المعاصر الذى اعتراه اليأس بسبب عدم قدرته على الوصول إلى الحرية الحقة لايجد العون إلا فى مساعدته للآخرين ، ولا يعثر على ذاته الحقيقية إلا إذا عثر على اخوانه فالله فى عون العبد مادام العبد فى عون أخيه .

---

(١) وذلك فى قوله تعالى (إنا عرضنا الأمانة على السموات والأرض والجبال فأبين أن يحملنها وأشفقن منها وحملها الإنسان) الأحزاب ٧٢

المؤلمة وهى تراجع حضارة السلوك الأخلاقى تراجعاً بعيد المدى أمام الحضارة الشيئية(١) .

وإن الكفاح من أجل سيادة السلوك الأخلاقى فى مقابل الحضارة الشيئية المجردة لهو واجب كل منا. ومصير هذا النزاع القديم المتواصل حول سيادة العقل قد ألقتة المقادير فى يد الحرية الإنسانية .

التوافق الحضارى العالمى :

ونستطيع الآن أن تقول أنه لكى يتحقق التوافق العالمى الحضارى فإنه لابد من تحقيق مطلب أساسى وهو أنه يجب أن يتوفر لكل الناس - وخاصة لهؤلاء الذين تنقصهم الشروط الحياتية الضرورية - وجود يليق بالكرامة الإنسانية وهو الوجود فى حرية .

وأن عدم تحقيق هذا المطلب يؤدى إلى التوترات الحضارية .

أما التعاون بين الحضارات المختلفة فإنه أمر ممكن ، وتواجدنا هنا من فى هذا المؤتمر دليل على ذلك . فتعاوننا هو مثال من أمثلة التعاون بين الحضارات المختلفة .

وعالمنا الذى نعيش فيه هو عالم صنعناه نحن البشر ، وسيكون عالمنا فى المستقبل هو ذلك العالم الذى نصنعه عن طريق سلوكنا .

---

(١) أنظر فى ذلك أيضاً : Behrendt فى كتابه الإنسان فى ضوء علم الاجتماع : Der Mensch im Licht der Soziologie (1962) P. 143. الذى يرى أن الخطر الحقيقى الذى يتهدد الإنسان المعاصر يكمن فى أن قدرته على تشكيل ذاته على المستوى الفردى والجماعى قد تراجعت تراجعاً حادا خلف قدرته على تشكيل بيئته تشكيلا ماديا .

وقد بين القرآن الكريم أن الإنسان هو الكائن الوحيد من بين كل الخلق الذى تحمل المسئولية(١) .

وهى مسئولية الاختيار بين الخير والشر . وكل فرد منا يقف أمام هذا الاختيار ولا يستطيع أن يتفاداه .

إن الاغتراب والبؤس اللذين يعانى منهما الإنسان فى عالمنا المعاصر لم يصلا فى يوم من الأيام إلى هذا القدر الذى وصلا إليه اليوم ، وكلاهما تعبير عن حرية لم تجد ذاتها بعد .

وهنا سؤال هام يفرض نفسه فى هذا الصدد وهو : هل يوجد هناك بديل آخر للأديان يحمى الإنسان من الضياع النفسى إذا استمر أنهيار الأديان فى عالمنا المعاصر ؟

أن الإجابة الوحيدة الممكنة على هذا السؤال - فى نظرنا - تقول: أن البديل الوحيد للاديان هو الهاوية بكل ماتحمل هذه الكلمة من معنى .

أننا كبشر لن نستطيع بقوانا المحدودة أن نصنع عالماً بالغ الكمال ولكننا نستطيع السعى إلى هذا العالم الكامل بجهود متجددة باستمرار .

وإن الإنسان المعاصر الذى اعتراه اليأس بسبب عدم قدرته على الوصول إلى الحرية الحقة لايجد العون إلا فى مساعدته للآخرين ، ولا يعثر على ذاته الحقيقية إلا إذا عثر على اخوانه فالله فى عون العبد مادام العبد فى عون أخيه .

---

(١) وذلك فى قوله تعالى (إنا عرضنا الأمانة على السموات والأرض والجبال فأبين أن يحملنها وأشفقن منها وحملها الإنسان) الأحزاب ٧٢

ونحن مطالبون بأن تتجه إرادتنا ويتوجه سعينا إلى التحقيق الأمثل للخير الأخلاقى(١) .

أما كيف يستطيع الإنسان الفرد أن يشارك مشاركة مسئولة فى إنقاذ البشرية المهددة بتدمير ذاتها فإن هذا سؤال نستطيع بسهولة أن نجد له إجابة قرآنية واضحة : « من قتل نفساً بغير نفس أو فساد فى الأرض فكأنما قتل الناس جميعاً ، ومن أحياها فكأنما أحيا الناس جميعاً(٢) » .

د / محمود حمدى زقزوق

---

(١) R. Lauth : Ethik, P. 95, Stuttgant 1969

(٢) سورة المائدة ٣٢